خلفيات الصوغ الروائي:
انهيارات المعنى في رواية "ذات" لصنع الله ابراهيم

رشيد طلال
باحث من المغرب
rachidtalal51@yahoo.fr

ملخص البحث

يكشف الانتظام الصيغي في رواية "ذات" عن خاصيتها الساخرة والنقدية، التي تأسست على لعبة التأطير الخطابي والتلفظي، وهذا ما سمح باتساع مجالات السخرية، وأيضا بتمترسها في المجرى الروائي مخترقة كل الخطابات التي تتداولها الشخصيات، كي تعبر عن مواقفها وطموحاتها وأهوائها، كما أن تشبع الرواية بالملفوظات التعليقية الساخرة، التي غالبا ما تصدر عن السارد، أحدث تصدعات في مجرى الخطاب الروائي العام، وذلك بما تسرب من تشكيك في مصداقية الرؤى الموجهة لحياة الشخصيات، ولهذا لا تنحصر مضاعفات انهيار المعنى في قلب اللغة فحسب، بل هو انهيار شامل في منظومات القيم الاجتماعية والسياسية والثقافية لمجتمع آخذ في التحول والتبدل، ولهذا غدت السخرية خطابا استشرافيا يقرا طالع الأفق الروائي ويعلنه ضمنيا تلاشيا ومسخا ليس إلا.

الكلمات المفاهيم:السخرية. المفارقة . رؤية السارد . الخطاب المسرود . سجل الكلام . الملفوظ.

تقديم:

تشتغل الكتابة الروائية على حافة نشاز شديدة التقعر والانثناء، لا تكف كياناتها عن التمرد والعصيان في جغرافيا المعنى والتدلال، حيث تشيد عوالم التخييل الروائي حاضنة لما يجاوز جاهزها ومألوفها، وذلك باندساس النافر من حالات الوجود والكينونة، إنها كتابة تجرؤ على نسف حصون المعاني وأحداث انهيارات عميقة في تجاويف سلطها المنيعة، وذلك من داخل المتكلس في ميتافزقاها، فهي لا تهادن مطلقا حالات تطابقات الوعي لذاته، إذ تزحف حوارتها فاتكة بالمسكوك والنمطي.

وظائف التعدد الخطابي:

لقد قصدنا من ملاحقة التلوينات الخطابية التي تهيمن على الانتظام الصيغي في الكتابة السردية أن نتحقق من اشتغالها، وذلك انطلاقا من الملقى الذي شكله عنصر السخرية على مدى استرسال الخطاب الروائي، وبعبارة أخرى كانت مجمل التلوينات الخطابية مقحمة في الخطاب المسرود، وتداخلها كان قائما على انمحاء استقلاليتها وانصهار بنيتها نتيجة تحول مادتها الحكائية إلى موضوع تخترقه النظرة الساخرة التي يحملها (الخطاب المسرود)، وبموازاة ذلك تتسع النظرة الساخرة وتتسع في النص تبعا لما تقتضيه تراتبية المستويات الخطابية (الخطاب الميتاسردي . الخطاب السردي . التلوينات الخطابية الأخرى) التي يرتكز عليها الخطاب الروائي بشكل عام.

يمكننا أيضا أن نهتم في نص "ذات" بنمط صيغي يمثله التعليق (Commentaire)، "ففي كل رواية يقوم السارد الأول بدور المعلق على خطاب الآخر"[1] المنقول عن الشخصيات الروائية، وقد يكون التعليق ذاتيا موضوعه كلام السارد نفسه، كما يمثل التعليق خطابا واصفا، فهو ملفوظ على ملفوظ[2] يسمح للترهين السارد بتحقيق ما يمكن أن يسمى الوظيفة الإيديولوجية[3]، سنحاول من هذا المنطلق أن نتتبع طبيعة العلاقة بين هذه الصيغة الخطابية والمادة موضوع التعليق، دون أن نغفل بالطبع علاقتها بالصيغ الأخرى الحاضرة في النص السردي.

-"صب الدكتور جماع ثقافته وخبرته في عبارة موجزة: "الإعتماد على النفس".

لم يقصد شعارا سياسيا بعينه، ولا ما توارد إلى ذهني عبد المجيد وذات من تقنيات، وإنما كان يشير إلى قلي البطاطس في المنزل، وتناول العصائر فريش، والابتعاد عن المعلبات والأغذية المحفوظة، وكل ما تدخل إليه المواد الكيماوية والملونة بالذات، مثل أحمر الشفاه ومعجون الأسنان، والآيس كريم، والمشروبات، والجيلي والشكولاتة، والبرنبون، وباختصار كل حلويات الأطفال" (ص.234).

جعل الترهين السارد من عبارة "الإعتماد على النفس"، في هذا المقطع، موضوعا لخطابه التعليقي، ويتضح أن هذه العبارة التي وردت كخطاب مباشر منقول عن الدكتور

"عادل" كانت ساخرة بالنظر لسياقات حكائية "سابقة" استعملت فيها داخل النص السردي، كما أن وضعها هنا في المقطع أتى مؤطرا بسخرية الخطاب المسرود التي تتضمنها، فهي تترابط مع ما جاء فيه، وذلك من خلال الكلام الذي تم التمهيد به لها:"صب الدكتور جماع ثقافته وخبرته في عبارة موجزة"، إننا نلمس استخفاف وتهكم السارد الساخر قبل أن نقرأ العبارة المشار إليها. وفيما يعود للخطاب التعليقي نجده قائما على المراوغة: فعوض أن يوجهنا السارد مباشرة لما يقصده الدكتور "عادل" بعبارة: "الإعتماد على النفس" وهو ما تولى ذكره فيما بعد، فقد اعتمد على النفي "كي ينعطف نحو ذكر ما لم يكن مقصودا بالعبارة، ويمكن أن نعتبر ذلك تحايلا ومراوغة من قبل السارد الساخر، تغيا من خلالهما الإحالة على ما يريد أن يستهدفه بسخريته (ص.93،157)، وكأنه يضعنا بطريقة غير مباشرة أمام استعمال العبارة ذاتها في وضع سابق في النص، حيث فضح ما كان يوازي عرض تلك الأفلام الإباحية (البورنوغرافية) من ممارسة لسلوك جنسي شاذ، ويفهم من لغة النفي، إذن، دعوة السارد الساخر لاستحضار ما سبق تقديمه من إحالات ساخرة في النص السردي عرت ما هو خفي في حياة الشخصيات الروائية.

يأتي تعليق الترهين السارد حاملا لتحايل هذا الأخير على مقصدية كلام شخصيته، إنه يمرر خطابه النقدي والساخر باعتباره غير مقصود من قبل الدكتور "عادل"، إلا أنه من زاوية أخرى يبقى مقصودا من طرفه.

إذا اكتفينا بالإشارة الموجزة التي يقدمها الخطاب التعليقي بشأن ما يمكن أن "يتوارد إلى ذهن عبد المجيد وذات من تقنيات"، فلن نتمكن من فهم مقصدية السارد الساخر بهذه العبارة إذ لم نستحضر ما حكي عن ممارسة كل من "الشنقيطي" و"عبد المجيد" لذلك السلوك الجنسي الشاذ، والذي كان يقودهما له عرضهما لأفلام إباحية.

كما أن التلميح المعلن عنه في بداية التعليق: "لم يقصد شعارا سياسيا بعينه "يستهدف بتهكمه مرجعية عبارة "الاعتماد على النفس" في سجل الكلام السياسي،

وذلك من منطلق استعمال ساخر لها في إحدى سياقات النص الحكائية. ويتجلى هنا بكيفية واضحة انعكاس اللغة الساخرة على ذاتها.

ثم إن ما كان يوجهه الدكتور "عادل" من "نصائح" تحذيرية في كلامه مع "ذات" و"عبد المجيد" حول ما ينبغي فعله وتجنبه من مواد غذائية، سيتراءى لنا كيف أن هذا الكلام "الناصح" يلتقي ضمنيا مع الشعار السياسي "الاعتماد على النفس"، في كون هذا الأخير لم يتحقق فعليا على أرض الواقع، بل تم الاكتفاء فقط بترديده واجتراره، نفس المصير ستعرفه "نصائح" الدكتور "عادل"، التي سوف لن تعمل بها "ذات"، يتأكد ذلك بعثورها لأكثر من مرة على أطعمة محفوظة فاسدة.

توجهنا، إذن، بداية الخطاب التعليقي نحو إحالات ذات مقاصد ساخرة للسارد، وانطلاقا منها يصبح الكلام الذي يعبر عن مقصديته الدكتور "عادل" في نهاية التعليق، بالمقطع المذكور، مؤطرا بالمقاصد السابقة، وذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار العبارة موضوع التعليق.

نخلص إلى ملاحظتين اثنتين: الأولى تتمثل في تعرية سخرية تعليق السارد على عبارة: "الاعتماد على النفس "لسلبية الأوضاع التي تعيشها الشخصيات الروائية. وتنحصر الثانية في اتساع دائرة المنحى الساخر للتعليق باستجلائه وهمية العبارة وفراغها من حيث هي شعار سياسي في الواقع المرجعي للنص السردي، وذلك من خلال ما يقدم من وضعيات حكائية ساخرة داخل النص ذاته.

-"كان لقاء الأيدي فاتحة لالتقاء الشفاه: ونقصد بذلك إعادة تشغيل قناتي البث، وبأقصى قوة، من أجل تغطية الفجوة المعلوماتية التي أحدثتها المقاطعة" (ص.278).

يؤشر استعمال السارد لضمير المتكلم عوض ضمير الغائب[4]. على تغير الوضعية السردية، إذ يحدث بموازاة ذلك تغيير في الصيغة الخطابية التي تنتظم هذا المقطع السردي، الذي نجد في بدايته خطابا مسرودا قصيرا يحكي عن كل من "ذات" وجارتها "سميحة"

بعد فترة انقطاعهما عن بعض، حيث عادتا إلى تبادل التحية ("لقاء الأيدي") والتحدث مع بعضهما ("لقاء الشفاه").

عمد الترهين السارد إلى استعمال الخطاب التعليقي، بعد نقطتي التفسير مباشرة، متخذا موضوع خطابه ما قدمه في الخطاب المسرود، وتتحدد الغاية من هذا التعليق الذاتي ("نقصد بذلك") في الكشف عن ذلك الجانب السلبي الذي يثوي خلف الأفعال التي تصدر عن "ذات" و"سميحة". ونلمس في لغة التعليق توظيفا لعبارات وألفاظ من السجل الإعلامي مثل: "تشغيل قناتي البث"، التي انطوت على استعارة ساخرة مليئة بالتهكم، أظهرت أن الكلام الذي تتبادله "ذات" و"سميحة" ليس في جوهره سوى عودة منهما للثرثرة، كما تشير أيضا عبارة: "لتغطية الفجوة المعلوماتية" التي أحالنا السارد الساخر من خلالها على رغبتهما الملحة والجموحة في استدراك ما فاتهما من "لحظات الثرثرة"، نتيجة الفترة التي انقطعنا فهيا عن توجيه الكلام لبعضهما بسبب خصامهما. وللإحالة على هذه الفترة بالذات استعمل الساخر في تعليقه كلمة "المقاطعة" من السجل السياسي.

جاءت بعض التعليقات في نص "ذات" مسبوقة بالاستفهام: "شيء لا يصدق من جانب أبوين؟" (ص.287)، "هل كانت ذات بريئة تماما؟" (ص.331)، مما أضفى على هذه التعليقات طابع الجواب: "فيجب أن لا ننسى أنها، رغم سلامة طويتها (ذات) وترفعها عن صغائر التعصب، سبق أن قدمت القربان المسيحي على مذبح الماكينات. صحيح أنها اكتشفت بعد ذلك أن خطيئتها ترتبط بقضايا أكثر تعقيدا مثل انقسام العالم إلى معسكرين، والمجتمع إلى طبقات، والاتجاهات إلى يمين ويسار، والمذاهب إلى سنة وشيعة، إلا أننا لا نستبعد أن تكون قد خشيت من وصول صوت التراتيل الكنسية إلى سكان العمارة، أو على الأقل ارتابت في أهداف أم عاطف ودوافعها" (ص.331). أعقب هذا الخطاب التعليقي مباشرة ما حكي عن ذلك الصدام بين "ذات" والخادمة "أم عاطف" والذي ساهم في إذكائه أفعال وردود أفعال كل منهما، ويبدو أن استفهام

السارد عن براءة "ذات"، والمطروح قبل التعليق، يساعدنا في التعرف على موضوع التعليق، وكجواب عن الاستفهام نقرأ عبارة: "من يعلم" التي بدأ بها السارد تعليقه، متظاهرا بعدم امتلاكه لمعرفة كلية تمكنه من استجلاء النوايا الحقيقية لـ "ذات"، وبما أن التظاهر لا يتوافق مع موقعه في النص السردي كترهين سارد وساخر، فإنه يعمد إليه باعتباره لعبة تسهل أمامه إمكانية التشكيك في كل ما يصدر عن "ذات" من سلوك وأفعال.

يدعونا التعليق إلى استحضار محكي سابق (ص.98،99) هيمنت على انتظامه صيغة الخطاب المسرود، أخبرنا من خلاله السارد عن امتناع "ذات" عن توجيه كلامها إلى "نادية"، التي كانت تعمل معها في الأرشيف، وذلك إرضاء لرغبة بعض العاملات الأخريات اللواتي كن ينعتن "نادية" بالمسيحية، وقد تم استدعاء هذا المحكي بموجز له أعاد استعمال نفس العبارة الساخرة: "القربان المسيحي" التي وردت فيه، وقصد السارد بالعبارة أن يخبرنا بكيفية متهكمة أن "نادية" كانت الضحية التي قدمتها "ذات"؛ مرضاة لتلك العاملات، كي تدفع عنها ما كانت تعانيه من تهميش هي الأخرى من قبلهن، ويبدو جليا هنا تعاطف السارد مع "ذات" في سخريته منها، فإذا كان ما صدر عنها لا يترجم "سلامة طويتها" بل على العكس يجلي سلوكها وفعلها الموجه ضد صديقتها "نادية"، فهنا تكمن المفارقة التي تطبع سلوك "ذات" وتسم شخصيتها بالتناقض.

ويمكن أن نلاحظ من خلال التعليق أن عبارة: "إننا لا نستبعد أن تكون قد خشيت من وصول صوت التراتيل الكنسية إلى سكان العمارة" كانت متلبسة في تهكمها بروح الدعابة[5]، وذلك بهدف الاستخفاف من الأفكار والتوقعات التي كانت تملأ ذهن "ذات" التي دفعتها إلى التخلي عن "مساندة" صديقتها، وتلتقي العبارة هنا مع ما كان يلف أغلب أجزاء المحكي موضوع التعليق من تهكم ("كما كانت هناك حاجة لكسب ود الأم المؤمنة، لأن سوق الأمهات المحلي كان يشكو الندرة في أعقاب ازدهار سوقهن العربي" (ص.330). يعود سبب الصدام بين "ذات" و"أم عاطف" في أصله إل رفع

هذه الأخيرة لصوت شريط التراتيل الدينية، الذي أحضرته معها كي تستمع إليه أثناء أدائها لمهامها بالبيت، وهذا ما لم تكن تتحمله "ذات".

أتت صورة الصدام بين "ذات" و"أم عاطف" مضخمة، وذلك نتيجة احتواء لغة الخطاب المسرود[6]، في المحكي موضوع التعليق، على عبارات وألفاظ من السجل السياسي الديني.

-"فهي بالرغم من تحجبها [ذات] لم تكن من المتعصبين الذين يحرمون التعامل مع العدو التاريخي" (ص.330).

-"وهنا انتابت الشكوك أم عاطف في أن الأمر لا يتعلق بالإذن وإنما بالفتنة، الطائفية بالطبع" (ص.330،331).

إن التعليق لم يكن فقط إمكانية خطابية تعلن صراحة عن طبيعة العلاقة التي ينسجها السارد مع المحكي الذي يقدمه، بل كان أيضا إمكانية تربط بين عدة أوضاع ساخرة من حياة شخصية "ذات"، فقد كشفت سخرية المحكي موضوع التعليق عن المظاهر السلبية التي تخفيها علاقة "ذات" ب "أم عاطف" الخادمة، ومن خلال التعليق نتوصل إلى ربط هذه العلاقة بتلك التي كانت لـ "ذات" مع "نادية"، فهي لا تقل عنها سلبية ومفارقة.

-"إذا نحينا صوت سيدته جانبا، والقيم التي يمثلها (...)، فإن ما يتبادر إلى الذهن تفسير لموقف الأم، هو أنها صاحبة رؤية إستراتيجية تتمثل في حماية بيت ابنتها من الانهيار، فإذا ما تخابثنا، ألفينا أنفسنا أمام أحد تعليلين أو كلاهما معا: إنها لا تريد لابنتها أن تنجح في تحقيق ما عجزت هي عن تحقيقه، و(أو) أنها تحمل عاطفة خاصة للشنقيطي الذي لا يصغرها إلا بسنوات قليلة. التعليلان نفسهما يصلحان لتفسير موقف ذات قبل خدعة التنازل عن الشقة، فقد انقلبت بعدها من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، معلنة مساندتها لمطلب الطلاق، مما جلب لها اتهاما بالتحريض، وبأنها أساس

البلاء والفساد، لكنها لم تعبأ بالاتهامات، إذ شعرت من رد الفعل في الأرشيف أنها تبنت قضية عادلة" (ص.287).

اتخذ التعليق موضوعا له، في هذا المقطع السردي، جزءا من المحكي الساخر (الفصل السابع عشر) الذي تضمنه، ويحكي السارد في ذلك الجزء عن الرفض الذي واجهته "سميحة" من أبويها لطلبها الطلاق من "الشنقيطي"، وتهديدهما لها بالوقوف معه ضدها، وذلك بالرغم من عملها بما يمارسه عليها من عنف، وقد كانت "سميحة" مدفوعة في طلبها ذاك بمساندة من "ذات".

حاول السارد من خلال التعليق، أن يعيد النظر بكيفية ساخرة في سلوك كل من "ذات" و"أم سميحة"، معتمدا على لغة احتمالية في استخلاص الدوافع الممكنة التي اعتبرها كامنة وراء سلوك كل منهما نحو "سميحة".

إن علاقة التعليق بموضوعه هي علاقة ميتاحكائية[7] من وجهة وظيفية، وفي هذا السياق تبدو احتمالية التعليق بمثابة "قراءة" للسارد، تتوزع في المقطع المذكور من خلال جملتين شرطيتين: الأولى حاول فيها أن يبعدنا عن الكلام الذي ذكرته "أم سميحة" وأخبرنا به محكي موضوع التعليق ("ليس في عائلتنا شيء اسمه الطلاق"). (ص.287)، وذلك حتى يتسنى له توجيهنا نحو ما تصوره كتفسير له، حيث تصبح الأم "صاحبة رؤية استراتيجية تتمثل في حماية بيت ابنتها من الانهيار"، أما في الجملة الثانية فيستدرجنا السارد عبر تفسيرين آخرين استجلى فيهما دافعين اثنين لسلوك الأم اتجاه ابنتها: الأول ينحصر في كونها (أي الأم) ذات عاطفة خاصة نحو "الشنقيطي"، الذي لا يصغرها إلا بسنوات قليلة، والثاني يعلن فيه السارد الساخر صراحة عقدة الأم في أن تبقى "سميحة"مثيلا لها، لذلك فهي في قرارها لا تريدها "أن تنجح [سميحة] فيما عجزت هي عن تحقيقه.

لقد نبهنا السارد الساخر، قبل أن يقدم هذين التفسيرين، أن سياق تفسيره وتعليقه (في الجملة الشرطية الثانية) يحكمه طابع "التخابث" ("فإذا تخابثنا")، نستشف من ذلك أن هناك استعمال ماكر" و"متحايل" للتعليق، فليس "التخابث" سوى لعبة

يفرضها هذا السارد الساخر على القارئ"[8] لكي يسحب على سخريته الغطاء الذي يستر ما يبدو جارحا من دوافع عميقة وراء سلوك الأم (و"ذات").

أسقط التعليق الدافعين اللذين اعتبرهما السارد وراء سلوك الأم على موقف "ذات"، الذي كانت فيه غير موافقة على طلب "سميحة" للطلاق، قد نلمس بوضوح استناد السارد في تعليقه الساخر على ألفاظ من الكلام السياسي، يمكن أن نتوقف منها أولا عند لفظة "اليمين" التي أراد بها الإشارة إلى الموقف الأول لـ "ذات" من الكلب الذي أصرت عليه "سميحة"، كما نجد في المحكي موضوع التعليق استعمال السارد للفظة "محافظ" من السجل السياسي، ولفظة "خطيئة" من السجل الديني: ("لكن ذات اتخذته موقفا محافظا للغاية عندما أعلنت صديقتها عزمها على طلب الطلاق، فهدم الأسر خطيئة لا تغتفر" (ص.268،287). ثانيا تقابل "اليمين" في التعليق لفظة "اليسار" وتشير إلى تغيير "ذات" لموقفها الأول واقتناعها بمساندتها لطلب "سميحة"، وذلك بعد "خدعة التنازل عن الشقة". إلى جانب ما ذكرناه هناك ألفاظ أخرى وردت في التعليق مثل "المطلب" و"التحريض" و"الفساد" "وقضية عادلة" وكلها ساهمت في رسم ملامح الوضع الساخر، الذي ترتب عن موقفي "ذات" من طلب "سميحة" للطلاق.

– "بوسعنا أن نتخابث هنا أيضا، كما فعلنا في حالة الأم، ونبحث عن تعليلات لموقف ذات من قبيل: أملها في أن تحقق سميحة ما عجزت هي عنه، أو رغبتها في استخلاص الفخذين المبهرين من براثن الوحش، أو العكس: تحطيمها بهدم السقف فوقها، أو وجود عاطفة خاصة نحو الشنقيطي (الذي يماثلها سنا تقريبا)، أو ضده، رغبة في ردعه (للحيلولة دون انتشار عدوى طريقته في انتزاع حقوقه الزوجية) أو الانتقام منه (لأنه أقنعها بأن تعطيه مدخراتها التي لم تتجاوز الألف جنيه ليضعها تحت تصرف الحاج قرشي مقابل ربح سنوي يصل إلى ثلاثين بالمائة، ففعلت من وراء ظهر عبد المجيد، ودون أن تأخذ أي إيصال بالمبلغ، لا من الشنقيطي ولا من الحاج، لأن الاثنين يعرفان ربهما،

ولم تخل هذه المعرفة دون إلحاح والتنصل من دفع الربح المأمول أو إعادة المبلغ الأصلي عندما طالبت به" (ص.288، 287).

ينتقل بنا التعليق هنا إلى مستوى آخر مغاير للموقع الذي قدم منه التفسير الساخر في آخر المقطع السالف كما رأينا، إذ نجد الترهين السارد يعود إلى موقعه "التخابثي"(مكر السارد)، الذي يحمل ضمنيا "تحايله" و"مكره" في طرحه للتعليلات أو الدوافع التي احتمل إمكانية وجودها خلف موقف "ذات".

ونحتاج لفهم تلك الدوافع إلى ربطها بأجزاء من المحكي الذي تضمن التعليق، ففي التعليل الأول أخبرنا السارد عن أمل "ذات" في أن تحقق "سميحة" ما عجزت هي عنه، وذلك لأنها كانت ترفض في عمقها الحالة التي تعاني منها "سميحة" وتريد التخلص منها بإصرارها على طلب الطلاق من "الشنقيطي"، الذي كان يمارس عليها طريقته الجنسية الشاذة، وثمة تلميحات ساخرة لهذه الطريقة في المحكي الذي تضمن التعليق:

-"وانتهاء بنوبات القيء المتكررة التي تصيبها" (ص.178).

-"حملت ذات القصة إلى ماكينات الأرشيف (...) فرغم وفرة معلومات الماكينات، وتجاربها الواسعة في ميدان التخلص من السائل إياه، كانت أول مرة يسمعن فيها عن هذه الطريقة المبتكرة: التخلص منه مباشرة عن طريق الفم" (ص.281).

-"عادت الأمور إلى سيرتها الأولى، أي إلى مرتي قيء تقريبا في الأسبوع"(ص.284).

وفي سياق إبراز الساخر للعيوب التي تشوب علاقة "سميحة" بزوجها، نجده يوجه تهكمه إلى "ذات" وباقي الشخصيات الأخرى:

-"وفي مجال التعليق لم تجد ذات المجرية، غير العبارات المألوفة في مثل هذا الموقف" (ص.282).

ويعلن الساخر في التعليل الثاني عن رغبة "ذات" في تخليص "سميحة" ("الفخذين المبهرين") من العنف، الذي يمارسه عليها "الشنقيطي"، وغصبه لها كي ترضخ لرغباته الجنسية، فلفظة "الوحش" التي أطلقت عليه، تحيل على سلوكه ذاك، كما أنها لا تخلو من هجائية محتقرة[9]. اتسم اندفاعه الجنسي بـ "الحيوانية".

-"تساءلت سميحة وهي تزيح قميص النوم، كاشفة عن معلومة أخرى، فضلا عن الفخذين المبهرين: "ولما يخذني بالغصب؟" كانت الكدمات الزرقاء تغطيها" (ص.282).

-"الذي ظهر أمامها [ذات] كان الشنقيطي متماسك النفس، غير الآخر الهائج الذي فقد أعصابه منذ قليل وانهال على سميحة بعصا ظهرت فجأة من حيث لا تدري" (ص.283).

واحتمل السارد الساخر في الدفاع الثالث عكس ما أتينا على ذكره في التعليل السابق، كما تكون "ذات" مدفوعة بحقدها كي تصل بـ "سميحة" إلى تحطيم بيت زوجيتها، أو كما يحتمل الدافع الرابع أن تكون لها رغبة خاصة نحو "الشنقيطي"، أو ضده كما جاء في التعليل الأخير، وذلك إما لرغبتها في "ردعه" أو "الانتقام" منه، ونلاحظ في آخر المقطع المذكور، لجوء السارد إلى استعمال القوسين داخل التعليق، فقد أضاف بواسطتهما لرغبة "ذات" في ردع "الشنقيطي" توضيحا أطلعنا فيه عن كونهما تسعى للحيلولة دون انتشار طريقته الجنسية الشاذة، كما أضاف أيضا "لانتقامها" منه توضيحا في شكل محكي قصير بصيغة الخطاب المسرود[10] أخبرنا فيه بأن "الشنقيطي" هو من أقنع "ذات" بتوظيف مدخراتها لدى "الحاج قرشي"، وينبغي أن لا نغفل هنا قصدية السارد الساخرة في إدراجه للإضافتين المذكورتين، وفي السياق ذاته يمكن أن نتوقف في ذلك المحكي القصير الإضافي عند عبارة: "لأن الإثنين يعرفان ربهما"، وتستهدف هذه العبارة كلا من "الشنقيطي" و"الحاج قرشي"، ونجدها (العبارة) تتكرر في موضعين آخرين: الأول أتت فيه بصيغة المفرد في محكي عن "الحاج قرشي" ("دون أن يحدد له إن كان يعرف ربنا أم لا يعرفه") (ص.211). ووردت داخل الثاني مدرجة في كلام منقول مباشرة عن "الشنقيطي"، أراد بها هذا الأخير إقناع "عبد المجيد" بإيداع مدخراته لدى شخص يعمل في توظيف الأموال:"إنه رجل يعرف ربنا، إذا كان عندك قرشين أعطيهم له يشغلهم لك" (ص.210).

إن تكرار السارد للعبارة، كما أوضحنا جعل من استعمالها الساخر يبدو كـ "تعيين" (Mention) ضمني (Implicite)[11] يتعارض مع استعمال "الشنقيطي" لها. إننا حين نستعمل عبارة فنحن نشير إلى ما تشير إليه تلك العبارة، وحين نقوم بتعيينها فنحن نشير إلى تلك العبارة[12].

وخلافا للملفوظ المنقول عن "الشنقيطي" مباشرة، أتت عبارة "يعرفان ربنا" في التعليق (وفي مواضع أخرى) معينة، إذ لم يكن السارد الساخر يهدف إلى تأكيد عرض (Proposition)) ملفوظ العبارة، لأنه لجأ إلى قلب المعنى (Antiphase) لتمرير سخريته، ويصبح هنا المعنى الحرفي خدعة مادام المعنى الحقيقي مشتقا ومندسا تحت الأول[13]. وعلى هذا الأساس تنقلب القيمة الدينية في العبارة المعينة ("يعرفان ربهما") إلى ضدها، وذلك بالنظر لما أخبرنا به المحكي الذي تضمن التعليق حول فضيحة ارتشاء "الشنقيطي"، أو بالنظر لما قام به هذا الأخير و"الحاج قرشي" من نهب لمدخرات "ذات" بدعوى توظيفها لها.

ليست "ذات" وحدها هي التي تعرضت للنهب من طرف "الشنقيطي" و"الحاج قرشي"، الذي ينتمي لفئة سخرت الدين لهذه الغاية (شركات توظيف الأموال)، بل نجد أيضا الدكتور "عاجل" و"موظف الزراعة"، (ص.338،347) اللذين ضاعت منهما مدخراتهما بنفس الطريقة. وبإمكاننا الآن أن نتبين كيف استهدفت سخرية المحكي الإضافي[14] وضعية أكثر انتشارا في واقع الشخصيات، إنها وضعية خلفتها شركات توظيف الأموال، وقد كشف الساخر سلبية الخطاب الديني الذي يدعمها بواسطة تعيين عبارات دينية.

. الهجائية الساخرة في التعليقات:

ونلمس تأكيد المنحى الهجائي والساخر في النص السردي من خلال ما يقوم من ارتباط بين احتمالية التعليق والمحكي الإضافي، ويعكس فضح الفساد الذي يعتري سلوك الشخصيات الروائية فساد الروابط التي تجمع فيما بينها.

اتجه الخطاب التعليقي مباشرة بعد عرض دوافع "ذات"، إلى احتمال الدوافع التي يمكن أن تكون خلف مساندة "عبد المجيد" لقضية "سميحة" (ص.288). ويحيلنا الساخر أثناء التعليق بعبارة: "المعارك والحروب" من سجل الكلام العسكري على الصراع والتوتر الذي طبع علاقة "عبد المجيد" مع "الشنقيطي"ن وتساهم العبارة المذكورة في إضفاء مظهر المبالغة والتضخيم على موضوع التعليق، فإذا عدنا إلى الدوافع المحتملة سنجد أو أولاها رده السارد لغيرة "عبد المجيد" من "الشنقيطي"، هذه الغيرة تم أيضا تفسيرها بعبارة: "لنجاحه في علاقته بالجمهور"، ويظهر هنا بجلاء التضخيم والمبالغة: فلفظة "نجتحه" أخذت في سياق التعليق بعدا تهكميا ونقديا، وذلك بالنظر إلى الانحلال والفساد الذي يطال علاقات "الشنقيطي" بالناس ("الجمهور"). فقد سبق أن أخبرنا المحكي الذي تضمن التعليق (ص.278) عن التحقيق مع "الشنقيطي" ورئيس مجلس حي مصر الجديدة بتهمة الرشوة.

عمد السارد من خلال احتمال الدوافع في التعليق- أن يفضح ما هو عميق وخفي في سلوك شخصية "عبد المجيد"، التي بدت مدفوعة برغبتها في التقرب من "سميحة"، وأيضا بغيرتها من "استحواذ الشنقيطي" على هذه الأخيرة، أو برغبتها في استعادة "اتصالها بالناس". تجعلنا هذه الاحتمالات التي ينقلها إلينا الخطاب التعليقي نشكك في موقف مساندة "عبد المجيد" لقضية "سميحة" في طلب الطلاق من "الشنقيطي".

نعثر في جوانب أخرى من نص "ذات" على تعليقات، اشتملت في جزء منها على ما اعتبرناه تعميما مهد به السارد لما هو خاص في حياة الشخصيات الروائية: "تتميز المرأة المصرية، كأغلب الناس في كل زمان ومكان، بقدرتها على تدبير احتياجاتها بنفسها، كما يشهد على ذلك شارع الهرم، لكن هذا الطريق ذي الشهرة العالمية (في بلاد القمامة الثمينة على الأقل كان مغلقا في وجه ذات لاعتبارات عديدة، يتعلق بعضها بالاقتصاد وقوانينه (مثل قانون العرض والطلب)، ويتصل البعض الآخر بالخوف الغريزي

الذي أثارته تجربة مدام سهير، ساكنة الشقة المفروشة، ذلك أن موظف الزراعة غضب لتردد الإخوة الخليجيين على مدام سهير، فأقدم على خطوتين متزامنتين: جمع براز القطط المتناثرة على السلم ودهن به باب شقتها، وقام بتركيب جهاز بث وتلق (أنتركوم) إلى جوار باب شقته" (ص.59).

إن ملفوظ التعليق عن قدرة المرأة المصرية على تدبير احتياجاتها بنفسها هو ملفوظ يحمل تعميما في تقويمه، كما أنه شكل تمهيدا لما سيحكيه السارد بصيغة الخطاب المسرود عن علاقة "ذات" بشارع الهرم و"أسباب انسداده في وجهها". واكتسى كشف الأسباب الخاصة" "بذات" بعدا تهكميا، فقد حصر السارد الساخر السبب الأول بعبارة "الاقتصاد وقوانينه" التي أعقبها مباشرة بملفوظ إضافي – بين قوسين– يحدد السبب في "العرض والطلب"، نستطيع أن نستشف من السجل الموظف هنا لأهداف ساخرة أن "ذات" كانت تعوزها القدرة المالية لكي "تتدبر" أمر شراء ما يعرض في المحلات التجارية بشارع الهرم، نظرا لذلك الارتفاع الكبير في أسعارها، ويعيد السارد السبب الثاني إلى "غريزة الخوف" التي جعلت "ذات" تتجنب الوقوع في نفس التجربة التي عاشتها "مدام سهير" مع "موظف الزراعة"، بسبب تردد "الخليجيين" على شقتها، وفي هذا السياق لا يستبعد السارد تلك العلاقة بين عهارة "مدام سهير" وشارع الهرم.

يدفعنا السارد الساخر بشكل جلي أثناء عرضه للسبب الثاني إلى إقامة علاقة تماثلية بين وضعية "مدام سهير" و"الوضعية التي خافت "ذات" أن تسقط فيها، ويمكن أن تستوقفنا هنا عبارة "الشهرة العالمية" التي نعت بها السارد شارع الهرم، إنها عبارة تنطوي على مقصدية ضمنية نفهمها من خلال ما يحكي عن تجربة "مدام سهير"، هذه التجربة تقدم لنا على سبيل الوضعية التي تتجنبها "ذات". إن الساخر يزج بنا في جوانب خاصة من حياة الشخصيات، لكي ندرك مرامي كلامه الساخرة من خلال التعميم الذي يحمله الملفوظ التعليقي حول "قدرة المرأة المصرية على تدبير احتياجاتها بنفسها في كل زمان ومكان".

-" لم يخطر على بال سنجر عندما اخترع ماكينته أكثر من تسهيل مهمة الحياكة على المرأة، لكن الماكينة الملقاة على جانبها فوق الأرض مكنت ذات مما هو أكثر أهمية: التعبير عن النفس الذي تدرج من اتهام عبد المجيد بالهدم (...) والتخريب(...) والأنانية(...) والبلادة(...)" (ص.100).

ركز التعليق في هذا المقطع السردي على هدف "سنجر" من اختراعه لماكينة الحياكة، وانطلاق الساخر من هدف "سنجر" ليس سوى معبر ينعطف بنا بعد ذلك نحو رد فعل "ذات" عن حادث ارتطام "عبد المجيد" بماكينتها وإسقاطه لها، يلاحظ أن السارد الساخر حاول أن يجعل من علاقة التعليق والخطاب المسرود، الذي أعقبه علاقة تربك بين غايتين متباعدتين[15]، ويمثل هذا الربط إحدى الإمكانات التي استندت إليها السخرية في تحققها، إننا نجد غاية "سنجر" من اختراعه تقابلها غاية "ذات" في "التعبير عن النفس".

ويحيلنا الساخر من خلال عبارة "التعبير عن النفس" على تهكمه واستخفافه من سلوك "ذات"، فاتهامها "عبد المجيد" ب "الهدم والتخريب والأنانية والبلادة" ينطوي على مفارقة ساخرة، لأن الاتهامات يمكن أن تنسحب أيضا على سلوك "ذات" مادام وعيها لم يرق بعد إلى مستوى إدراك التناقضات التي تعيشها.

-"ألف المصريون المحدثون تاريخ أيامهم بالتقويم الثوري (قبل 1952 وبعدها) قبل أن ينتقلوا إلى التقويم الرئاسي للثالوث الذي تعاقب على الحكم بعد الثورة (عبد الناصر، السادات، مبارك)، أما ذات فكان لها تقويم خاص يعتمد الثالوث الأموي الذي تعاقب أفراده على خدمتها: أم أفكار، أم عاطف، أم وحيد" (ص.323).

يتحدث تعليق السارد عن التقويم التاريخي لدى المصريين المحدثين، ولا يخلو التعليق من تعميم بالنظر لما سيسوقه من حياة "ذات" الخاصة: إننا نعثر على تقابل بين "التقويم الرئاسي" أو "الثوري" والتقويم الذي خص به السارد "ذات" ("أموي")، وتعتمد فيه على ما تعاقب عليها من خدمات (أم أفكار، أم عاطف، أم وحيد)، فبالرغم من

التباعد القائم بين العام والخاص فإن ربطهما يطبعه مظهر الدعابة والهزل، ومن ثم تكون تهكمية النظرة الساخرة قد انسحبت ليس فقط على التقويم الزمني الذي اعتمدته "ذات" بشكل خاص، بل أيضا على ذلك التقويم الزمني العام، والمشار إليه في التعليق بالتقويمين: "الرئاسي" و"الثوري".

يحفل نص "ذات" بعدة خطابات تعليقية هي عبارة من تقويمات أخلاقية، تخدم أساسا مرامي السارد الساخرة:

-"ذات الطيبة السمحة كانت ابنة مخلصة لثورة جمال عبد الناصر، ترتب على أن البشر متساوون، لا يفرقهم دين أو جنس أو مال أو جاه أو منصب" (ص.99).

-"فذات الفاضلة تعلمت من الصغر أن هناك أشياء لا يعترف المرء بها ولا حتى لنفسه" (ص.120).

-"انبرت ذات، صاحبة المواقف الإنسانية، للدفاع عن الكهل المظلوم" (ص.127).

-"منطق أفحم ذات الطيبة فلم تملك سوى معاتبة الأم على أن ثورتها التصحيحية جرفت في طريقها الكيلوتات، والحصالة والذهب، هنا اعترفت الأم بوقوع أخطاء في الحساب والتقدير ووعدت بمزيد من التصحيح" (ص.344)

تعتبر السخرية "قبل كل شيء طريقة في التعامل مع العالم سواء بالإجابة أو رد فعل اتجاه وضعية معينة، ويمكن أن تكون الطريقة التي نجيب بها محددة بدورها بواسطة مزاجنا العميق، كان يكون متعارضا: فتبدو سخريتنا، إذن، احتقارية، قاسية، انتقامية، معاقبة، سلطوية إلخ... أو متسامحا فتبدو سخريتنا متسامحة، هادئة، مسلية، رحيمة، مستسلمة إلخ..."[16] ، وبناء على هذا القول نخلص إلى أن السارد الساخر كان متسامحا مع شخصية "ذات" في مجمل التعليقات التقويمية المذكورة، إذ نجده يصفها بالطيبوبة والسماحة والإنسانية، إلا أن تسامح الساخر لا يدفع بالسخرية نحو التراجع عن وظيفتها النقدية، التي تروم كشف التناقضات سواء منها ما يطال السلوك الفردي لكل شخصية أو الحياة العامة لسائر الشخصيات الروائية.

إننا نعثر خلف التقويمات، التي أبرزناها في الملفوظات التعليقية، على ما هو مفارق تماما لمعناها الظاهر: فقد امتنعت "ذات" عن توجيه الكلام لصديقتها "نادية"، وذلك لمجرد اتهامها من قبل العاملات الأخريات في الأرشيف بالمسيحية، فلا تبدو واضحة مصداقية الكلام التقويمي الذي يسوقه السارد عن "ذات" بشأن نظرتها إلى "البشر على أنهم متساوون ولا يفرقهم دين أو جنس أو مال أو منصب"، وأنها "ابنة مخلصة لثورة جمال عبد الناصر"، فكل هذه القناعات" تبقى وهمية وكاذبة من موقع نظرة الساخر إليها. فهناك إلى جانب التناقض الذي يعتري سلوك "ذات" مع "نادية" تناقض آخر يكشف أنها لم تكن "مخلصة لثورة جمال عبد الناصر"، يبدو هذا التناقض جليا عبر نمط وعيها الملتبس: ف "ذات" كانت تظن نفسها أنها "أصبحت شيوعية" (ص.16) إلا أنها في نفس الآن لم تكن تقبل اتهامها بالشيوعية، الذي وجهته لها "مدام سهير" في صدامها معها (ص.168). كما أن دافعها إلى وضع الحجاب على رأسها وأيضا تفكيرها في الذهاب إلى الحج لم يكن الهدف من ورائه سوى تقديم دليلها إلى العاملات معها في الأرشيف على أنها ليست من "زمرة البلاشفة" (ص.345).

لقد اختار "صنع الله إبراهيم" عن قصد شخصية "ذات" لتكون شخصية رئيسية في روايته، وهي شخصية محبطة على أكثر من صعيد، اضطرت للعمل في أرشيف صحيفة من الصحف اليومية، وتتمحور مجمل الأحداث السردية حول "ذات" وزوجها وصديقاتها وأقاربها وزميلاتها في العمل وخادماتها وكل ما يحيط بها. ويتحكم في تقديم الأحداث منظور مزدوج: فالتقاط السارد لهواجس شخصياته وتطلعاتها ومخاوفها لا يمر دون تلبيسه وتغليفه بلباس السخرية وغلاف التهكم.

تنسج رواية ذات عوالم صاخبة بالتناقض حد التلاشي والانهيار، فلا تكف القيم والمعاني عن الارتكاس والتراجع حتى تبدو عوالم الرواية عارية منسبة الحقائق واليقينيات، فعلى خلفيات السخرية تثوي عدوى السلوكات وهي تنتقل من سياق إلى آخر في حيوات مقنعة وخاذعة ومنافقة، تتولى الكتابة الروائية الكشف عن مأزقها وزيفها، وإدانة

معمار كينونتها الصنم، وأنماط خطاباتها الخرقاء، فهي وإن غدت شرطا وجوديا فإن الرواية لا تكف عن مراودة ذاك الممكن والعصي في حياة شخصياتها، هذا إن تكن تتكهن بما سيكون عليه من كينونات تراجيدية، وحالات وجود مشوبة بالمسخ والتشوه.

هوامش:

[1] - P. Van Den Heuvel : Parole, Mot, Silence, Ed. José Corti, 1985, P.149.

[2]- نفس المرجع، ص : 154.

[3] - - G. Genette: Figures III, Ed. Seuil, 1972, P.263.

[4]- " لا تمثل ضمائر الجمع تكاثرا عدديا دون مبرر بالنسبة لضمائر المفرد، فليس "نحن" دائما أنا "زائد "أنت" زاد "هو"، يمكنها أن تكون "أنا" زائد" أنت "بدون "هو" أو "أنا" زائد "هو" بدون "أنت" عن:

- Harald. Weinrich : le Temps ; Ed. Seuil, 1973. P.26.

[5] -كان "توماس مان "صاحب رواية" الجبل السحري" يعتبر أن الدعابة (Humour) هي روح التمثيل السردي عن: - W. Krysinski : Carrefours de signe, Essais sur le roman moderne, Ed. Mouton, 1981, P.324.

[6]- تنقلب هنا أيضا اللغة المسخرة للسخرية على ذاتها.

[7]- يرى"هوفيل" أن علاقة التعليق بموضوعه قد تكون ذات وظيفة ميتاخطابية أنظر:

- P. Van Den. Heuvel : Parole, Mot, Silence ; Ed. José Corti, 1985, P.154.

[8]- نفصد القارئ الضمني الذي يتحدد وجوده من داخل النص.

[9]- إن "الهجائي شكل أدبي هدفه إصلاح بعض العيوب والحماقات في السلوك الإنساني، بجعلها موضع ضحك، فالحماقات المستهدفة بصفة عامة تعتبر خارج نصية (Extratextuelles)، بمعنى أنها دوما أخلاقية أو اجتماعية تقريبا وليست أدبية" عن:

- Linda Hutecheon : Ironie et parole, stratégie et structure, in Poétique N°46, Avril, 1981, P.144.

[10]- توظيف القوسين في التعليق تظهر معه تراتبية بين ما هو رئيسي وإضافي توضيحي تم وضعه بين قوسين وقد تكون التراتبية خطابية أيضا.

[11]- بناء على تمييز "د. سبربير" و"د. ويلسون" بين التعيين الضمني (Implicite) والتعيين الظاهر (Explicite)، يتضح أن تكرار السارد للعبارة كان فيه تعيين ضمني لأنه لم يكن يهدف إلى نقل خطاب ما عن "الشنقيطي" ولكن أراد أن يظهر إلى جانب الأصداء (Echos) المباشرة لعبارة "يعرف ربنا"، التي استعملها هذا

الأخير، أصداء أخرى غير مباشرة متجاوزا عرض ملفوظ العبارة إلى مضمر (Sous-entendu) ينفيه ويؤكد عدم صدقه وملاءمته، أنظر:

- D. Sperber, D. Wilson : Les ironies comme mentions, in Poétique N°36, 1978.

[12]- نفس المرجع، ص، 404.

13 - Catherine.K. Orecchioni: L'implicite, Ed. Armand Colin, 1986, P.106.

[14]- يمثل هذت المحكي الإضافي القصير واحد من تلك الملاقي التي تربطنا بما يقدم عنة شركات توظيف الأموال في المقتطفات الصحفية (الفصل السادس عشر والسابع عشر) إنه بمثالة جسر تتسرب منه شظايا المادة المقتطفة لتجد مكانها ووضعها في مجرى السياق الحكائي داخل النص.

[15]- تقتضي الكفاءة الساخرة تحريك آلية أو آليات قصد استدعاء الذاكرة أو الخيال لإظهار التماثلات في أشياء غير متماثلة، وتمييز التي تبدو مماثلة، وإقصاء الأساسي، وتحويل الخاص إلى عام، وهذه كلها إمكانات ذهنية يلجأ إليها الساخر : أنظر: - D.C. Muecke : Analyse en Ironie, in Poétique N°36, Novembre 1978, P.482.

[16] - .C. Muecke : Analyse en Ironie, in Poétique N°36, Novembre 1978, P.486.

المراجع المعتمدة:

- Catherine.K. Orecchioni.: L'implicite, Ed. Armand Colin, 1986.

- G. Genette: Figures III, Ed. Seuil, 1972.

- Harald. Weinrich : le Temps ; Ed. Seuil, 1973.

- P. Van Den. Heuvel : Parole, Mot, Silence ; Ed. José Corti, 1985.

- W. Krysinski : Carrefours de signe, Essais sur le roman moderne, Ed. Mouton, 1981.

. من المجلات الأجنبية:

Poétique N°36, Novembre 1978.

Poétique N°46, Avril, 1981.